

اول النصر في هذه المعركة

ساعات الحال يوم الاربعاء ٢١/١/٤٨ فبدأت بغداد فيه موحشة على احتشادها، مكفهرة على تلالؤ صباحها ، مخيفة على ما عهدناه فيها من أنسة وسرور ووداعة .

وكان الامر بين الطلاب والحكومة قد تفاقم وكبر عن التقارب . ولا انسى ان الناس تذكروا (الزعامات) وتلفتوا الى شفيع منها يقف بين الصفين فيوقف هذا الشر ينال من دماء الطلاب والشرطة معاً ، ويردي بهؤلاء وهؤلاء شبوله كنا ندخرها جميعاً خير الوطن . ولكن انى نجد هذا الشفيع والزعماء الجديرون بان يقفوا بين الصفين كانوا بمن لا تأخذ الحكومة بنصحهم ، وكان عزهم عن مثل هذه الشفاعة احد الاخطاء التي أدت الى مثل هذه الحال .

أما السياسيون الذين يدعون الزعامة بصلف وتوقع فقد كانوا

بحكون المؤامرة لاستمرار هذه المعركة وراء الستار .
وما كنا بعد اعتزال اولئك ، ولؤم هؤلاء مستطيعين اكثر
من قول كلمة نوجهها للاحرار ندعوهم بها الى الرفق والهودة
ومعالجة الاصلاح باداة السلم .

على أن المعركة تجاوزت الاقوال في هذا اليوم وانكشف الغبار
عن قتلى كثيرين كان في الطليعة من صرعى الطلاب فيهم شران
علوان أحد طلاب دار المعلمين الابتدائية ورشيد سعيد الاعظمي
أحد طلاب ثانوية الاعظمية . ثم استجر النضال واخشوشن ، وركبت
فيه الحكومة متن العنف فنصبت الرشاشات على سطوح المنازل ،
واسوار المستشفى نفسه لترهب طلاب كائني الطب والصيدلة ومن
يحتشد فيها من طلاب الكليات الاخرى .

كما اوقفت من جانب آخر كثيراً من رجال الاحزاب وقادة
الطلاب الاحرار وعطلت بعض الصحف في طراز من العنف
لا تشبهه الا سيرة الحجاج من قبل .

(١) مما قلته في هذا الموضوع ما ورد في (اشتات) ٢٢-١-٤٨ .
أعني ان نستعين في جهادنا بروح الحب ، وفلسفة الرفق ، فانها أعون على
النجاح ، واجرى مع الحياة . كونوا صلاباً في عقائدكم ، اشداء في مبادئكم
ولن تحتاجوا وانتم في قمة الصلابة والشدة الى شيء من العنف .
تعجبي فلسفة (غاندي) . . انه يحارب بالصوم اعضل مشا كل الدماء ،
والصوم سلاح عنيف ولكنه من مزاج السلم والصفاء ، والسكينة ، وليس
بضاره ان تكون له هذه الصفات ، ولا بمنقص من ايمانه شيئاً .
الى آخر ما جاء على هذا الفرار في تقرير الاسلوب الذي ننتفع به — في
رأبي — الاصلاح .

ولم يترك الطلاب وحدهم يواجهون هذه المحنة، وإن كانوا جنودها
البواسل بل امدتهم الاحزاب بالاحتجاجات، والصحف بالمعارضة
العنيفة، والاطباء والاماتة بالاستقالة، والاندية بالوجوم
والتهيبو للانفجار، فكان ذلك كله مما صنع النصر لهم، وعمل في
الجهة معهم.

بيان الوصي الاول

غدوت صباح الاربعاء ٢١ كانون الثاني سنة ١٩٤٨ الى مكتي
في جريدة الساعة فاجتزت في شارع الرشيد، ثورة لا يهدأ عرامها،
وهيجاء تتفجر حماسها عزيمة صادقة ومضاء منطلقاً.

كانت بغداد تضطرم وتتوهج بما تضطرم وتتوهج به في حرركاتها
الكبار وايامها الوطنية الغر، وما أدري ايها كان يتمطى بنفسي
وأنا أشق تلك الصفوف المحتشدة تملأ الرحب من جماهير الطلاب،
وحشود المرابطين والمرابطات على أرصفة الشارع من أهل بغداد،
- ما أدري ايها كان يتمطى بنفسي: الزهو والكبرياء بهذا المظهر
الوطني العظيم، أم الالم لهذه المعركة يتمحن بها الاخ بحرب أخيه،
وكلا الصريعين من دم هذا الوطن و (لمه) وتوابه ومائه،
وضوته وهوائه.

وحين القيت بنفسي على الكرسي وراء المكتب لأقرأ صحف
الصباح كان هذان العاملان يتنازعاني بعنف ويصرفاني اليهما عما
سواهما.

ولم يمض علي في المكتب غير قليل حتى رن التافون الى جنبي

وكان الذي يكلمني مدير الدعاية ، ويريدني أن اواجه وكيل رئيس الوزراء السيد جمال بابان ، ولكنني رفضت ، فقال : اذت معالي وزير الداخلية يرغب ان يراك ، فقلت له : لن ارى هذا ولا ذاك ولا غيرهما من المسؤولين ، قال : ولكن لهما معك حديث مهم ، فأجبتة : لا تطل الحوار ، المسألة من ناحيتي مبتوت بها ، وليس لي حديث معها حتى يستقيلا .

بهذا انتهت الكلام معه وخرجت الى مجلس النواب . وكانت اروقته تتمخض بنوعين من النشاط متناقضين ، اما الدور (الطابق) الاعلى - وهو مقر الاعيان - فكان يتدارس وسائل (دزرائيلي) في مواجهة الموقف ، ويمالى الحكومة - بعد ان انتهت الى هذا الحد من الحرج - على استعمال الشدة وكانت الحطة تتجه الى غلق المدارس جميعاً وتفريق الطلاب واعلان الاحكام العرفية .

اما الدور (الطابق) الادنى - وهو مقر النواب - فكان ركن من اركانه يضم أعضاء الجبهة الدستورية الثلاثة عشر وعلى رأسهم الشيببي والفارسي ، وكان هؤلاء يتدارسون عبر (الباسليل) ولكن بهدوء وسكينة يبلغان حد الوجوم . لقد كانوا يستنكرون أشد الامتنكار سيرة الحكومة ، ولكنهم كانوا يخشونها لأنهم كانوا يشكون بدرجة الوعي الشعبي .

*

و كنت على موعد في البلاط بمواجهة صاحب السمو الوصي الامير عبد الاله ، ولم البث عند رئيس التشريفات الملكية السيد تحسين قدرتي الا ريثما حسوت القهوة وادرت معه الحديث في انكار

اغلاق المدارس واستهجان هذا الاسلوب الذي لم يعد ملائماً لروح هذا العصر ، ثم اذن لي فسلكت هذه السكة من حديقة البلاط التي سلكتها مراراً كثيرة من قبل . واجتزت الرواق الى الغرفة الموصلة الى مكتب ولي العهد المعظم ، وكان الحارسان من جنده الخاص يقفان كالعماد بقامتيهما المدينتين كالمثالين لا يطرفان ولا يتحركان فكانت غرسا في الاعماق ، أو سمررا في الارض .

وكان الامير واقفاً في صدر مكتبه يتطلق وجهه بالبشاشة التي عهدتها كلما رأته ، ويفتر ثغره بابتسامة رقيقة ، وكانت الاراتك القليلة على نظامها الرتيب ، وكابه الضخم يتبختر في تنايه وكبرياء . ولما جلس سموه وجلست لم يكن يبدو عليه شيء من القلق ، كأن جو بغداد السياسي كان يقطر من الصفاء والصحو ، وتلك سعة الملوك ورباطة جأشهم .

تلطف اول الأمر فسأل عن (احوالي) ثم استطرد فسأل عن (الساعة) وقال : لا يتسع وقتي هذه الايام لقراءة الصحف . لذلك اترك قراءتها الى المساء لأتصفحها قبيل النوم ، ولكنني اغفو حين ابدأ بالقراءة ، فاذا انتهيت في الصباح لفت سمعي (خشخشة) على السرير فالتفت فاذا الجريدة التي اردت قراءتها في المساء هي التي تحدث هذا الصوت .

فقلت : (الساعة) يا سيدي معارضة هذه الايام شديدة في المعارضة .

قال : لا بأس ولكن عهدتها صديقة لصالح جبر .
فقلت : لم تكن صديقة له ، يا سيدي ، ولن تكون له عدواً لأنها

لا تعادي ولا تصادق اشخاصاً ، بل تعادي وتصادق الاعمال ، وهي بعد ذات مبدأ في خدمة البلاد وارتياح المصلحة ، وليست المعاهدة الجديدة منها في خل ولا خمر .

فوجم سموه لحظة ثم قال : وماذا الآن في بغداد ؟

فقلت : لن استطيع - يا سيدي - ان اداورك او اكذبك حين اجيب . وقد يلذ اصحاب المصالح من الحافين بمقامك الكريم ان يداوروا أو يكذبوا . أما أنا فالمصلحة التي اتوخاها هي المصلحة العامة ليس غير . وفي بغداد الآن سوء يتكاثف ويزداد لحظة فلهظة ، واسوأ ما في هذا السوء ان الحكومة تعلن ان المعاهدة الجديدة من صنع سموك .

وانها لتريدم - اذا الاعلان ان تحمي المعاهدة من الرفض وتحصنها من النقد ، اذا انها تظن ان اقترانها باسمك الكريم يجعل فيها مناعة .

بينما يرى الناقدون ان الترويج للمعاهدة بهذا الاسلوب يضيف اليها ضعفاً جديداً باعتبار سموك غير مسؤول . على انها بلغت من اجماع الرأي على رفضها محلاً لا يمنعها فيه من سحق الشعب شيء . لذلك أرى ان نسبتها الى سموكم سياسة لا يستطيع صانعوها ان يدعوا حواجها .

قال سموه : ولكن الحقيقة اني لم اعقدها . وكل ما في الامر اني كنت أقدر أن شعبنا الكريم يميل الى تعديل معاهدة (١٩٣٠) فأبديت رغبتني في لندن بتعديلها على هذا الاساس . اما بنودها وما يتصل بها من الخطوات الرسمية فليس بما شاركت به .

قلت : ولكن الرأي العام لا يعرف شيئاً من هذه الحقيقة ،
ومن حقه ان يعتقد خلافها لأن الحكومة اعلنت غير مرة على
مسمع من سموكم ان المعاهدة الجديدة من عملكم ، وزادت في اثبات
ذلك فنشرت بوقية بيفن - وليس له ان يبرق اليكم - التي بيني
سموكم فيها بنجاح العراق في هذه المعاهدة .. !
قال سموه : ولكن الواقع هو ما قلته لك .

قلت : نعم يا سيدي ، ولكن لن ينتفع الناس بهذا الواقع
اذا عرفته انا وحدي . واذا كان لي ان اقترح فاري احد امرين :
إما ان تقال الوزارة لقاء هذا الاعلان على الاقل ، فتلاقي جزاء
سوء تصرفها من جهة ، وتكون اقاتها اشعاراً برغبتكم السامية
الصريحة برفض المعاهدة ، واما باذاعة بيان صادر من البلاط
يصحح الخطأ الذي وقع .

*

لم يجيني سموه بشيء ، ولم تنطق به بشاشته ولكنها بهتت ، وبدأ
عليه التفكير ، وتلفت بحركة سريعة الى التلفون الذي كان الى جنبه .
عندئذ نهضت الانصراف وودعت سموه وخرجت الى مكنتي .
فقد ارضيت ضميري فقلت بما استطعت من الواجب الذي كان
يسلط علي في الصباح عاملي الزهر والألم ، وبورطني في حيرة
نفسية لم أجد منها مخرجاً بغير مساعي هذا سواء أوفق او لم يوفق .

*

وبعد ان رجعت الى مكنتي استدعاني وزير الداخلية بواسطة
الشرطة هذه المرة . وقد فهمت المغزى من استدعائي بهذه الوساطة ،

والدعوة صريحة بان الاعتقال ينتظرني إذا امتنعت . وكانت
الدعوة ذات طابع من اللياقة والمجاملة فنهضت ، ولكني لم أجد
وزير الداخلية وقيل لي انه في البلاط حين سألت عنه .
ولأجل ان اطمنن الشرطة تلفنت الى ضابط المركز ان وزير
الداخلية غير موجود ، فاذا شتم جنتم واذا شتم فانا في المكتب ،
فطلبوا الي البقاء في مكنتي إلى ان يعود الوزير .

*

ماذا في البلاط .. ؟

هذا ما اردت ان اعرفه . وعلمت ان سمو الامير استدعى بعد
خروجه من حضرته الوزراء واركان السياسة في العراق ليعقد
مؤتمراً يبحث الوضع الراهن .

ودعي في نحو الساعة الثانية زوالية قرابة خمسة وعشرين سياسياً
فيهم من اصحاب الفخامة سماحة الصدر والمدفعي وحكمة سليمان
والباجه جي وارشد العمري ، ومن اصحاب المعالي الشيخ محمد رضا
الشبيبي ونصرة الفارسي وجعفر حمدي وعبد العزيز القصاب
(رئيس النواب) ونجيب الراوي وصادق البصام وعبد المهدي
المنتفكي . ومثل الحزب الوطني الديمقراطي معالي السيد كامل الجادرجي
وحزب الاستقلال معالي السيد مهدي كبة ، وحزب الاحرار
معالي السيد علي ممتاز الدفتري .

أما وزراء الحكومة القائمة فحضر منهم اصحاب المعالي جمال
بابان (وكيل الرئيس) وضياء جعفر وزير المواصلاة وجميل
عبد الوهاب وزير الشؤون الاجتماعية ويوسف غنيمية وزير المالية

وعبد الاله حافظ وزير التموين وتوفيق النائب وزير الداخلية
وتوفيق وهي وزير المعارف .

ولم يترك الاجتماع هذا دون كتابة يحصون على القائل قوله لثلا
يؤثر اخدم العافية بارتجال رأي يراه كي يتخلص به من الموقف
الموقت ، فكان عليهم جميعاً ازاء هذا الرقيب من السجل ان لا
يتملصوا ولا يروغوا فهم بين قوتين كبيرتين: الشعب وهذا يريد رفض
المعاهدة ، وبريطانيا وهذه تريد تصديقها .

وكثير من الحاضرين انصار للمعاهدة من قبل ، ترى
ايسجلون وفاءم لها ؟ وهذا الشعب تفتتح عيناه حتى ليقرأ الغيب!
أم يسجلون رفضهم لها ؟ ومن يدري فقد تصير الامور الى نهاية
اخرى وتجسد المعاهدة عوناً على البقاء ؟
انه امتحان بلا ريب .

أما اصحاب المبادئ الشعبية فلم يحسوا بمرجه ، لانهم اصحاب
الرأي من قبل في عدم رجحان المفاوضة في هذا الظرف وعلى يد
هذا الوفد. لذلك كان الصدر وسليمان ورؤساء الاحزاب في امان من
هذا الامتحان ، فأعلنوا رأيهم بوجوب رفض المعاهدة . ورأي
رأيهم من وزراء الحكومة القائمة يوسف غنيمية وعبدالاله حافظ ،
وتبعهم الحاضرون جميعاً مؤثرين في هذا الامتحان رضى الشعب على
رضى الانكليز .

إلا جمال بابان وجميل عبدالوهاب اوضياء جعفر فقد ايدوا المعاهدة

(١) حدثني معالي جميل عبد الوهاب في مناسبة ، عن موقفه هذا فبرأ نفسه
وألقى التبعة على جمال بابان في تفاصيل لا نذكرها الآن .

بجهاة ، واما عبد المهدي المنتفكي فقد أيدها ايضاً ولكن بتردد وفتور .
فكان بهذا اضعف الحاضرين واقربهم الى التخاذل والوهن .
وفي الحق لقد كان الموقف حرجاً جداً ، دقيقاً جداً . ولا نذيع
سراً - كما يقول الصحفيون - اذا قلنا إن شيئاً من المكاشفة جرى
في هذا المؤتمر ، وربما كان من الحسن بقاؤه مطوياً الآن ، ولكن تقرير
الموقف كان من الدقة بمكان ، ولم يكن تشبيهاً امتداد الجلسة
ست ساعات .

وأخيراً تقرر بالاجماع ان بطمئن سمو الامير شعبه بالبيان
التالي :

« بناء على اهتمام حضرة صاحب السمو الملكي الوصي وولي العهد
المعظم بشؤون البلاد العامة والاضاع الحاضرة ، ونظراً لرغبة سموه
الملكي في الاستئناس بأراء بعض اهل الرأي فقد تفضل سموه
الملكي بدعوة رؤساء الوزارات ونائب رئيس مجلس الاعيان ورئيس
مجلس النواب وقسم من الاعيان والنواب وممثلي الاحزاب السياسية
فاجتمعوا في البلاط الملكي العامر الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم
بمحضور هيئة الوزارة .

وقد عرض المجتمعون آراءهم بخصوص مسودة لائحة بور تسموث
العراقية - الانكليزية . وقد اجمعت آراؤهم على انها لا تحقق اماناً
البلاد وليست اداة صالحة لتوطيد دعائم الصداقة بين البلدين ، سيما
وان مجلس الوزراء لم يقر بعد تصديق المعاهدة المذكورة . ولهذا فان
صاحب السمو الملكي وولي العهد المعظم بعد الشعب العراقي بانه
سوف لا تبرم اية معاهدة لانضمن حقوق البلاد وامانها الوطنية . »

لو لم يصدر بيان الوصي

أفرخ روع بغداد بعد صدور البيان، واستراحت الى شيء من الطمأنينة، فأفرج عن المعتقلين والصحف المعطلة، وبات الناس مستريحين من اثره الرصاص المللع.

ولا حاجة بي إلى القول بان الحجز ارتفع عني انا ايضاً فالموقوفون في السجن أفرج عنهم ولما اصل انا الى الموقف.

وكان هذا البيان منفذاً او كالمنفذ الى تهدئة الناظر وتسكين الرأي العام. وكانت الحياة القلقة المتعبة في حاجة الى هدنة. لذلك أقبل السياسيون والكتاب من المستقلين والاحزاب جميعاً على البيان يعلنون انه ضمانه برفض المعاهدة، ويهنتون الوصي بموقفه. وقد علقت انا على البيان بالكلمة التالية:

« كان منظوراً في مثل هذه الازمة ان يتدخل زعيم نافذ الزعامة فينقذ الموقف المتأرجح تأرجح السفينة الضالة بين امواج نوء عاصف.

فقد اتسعت الثغرة بين الشعب في نغمته على المعاهدة التي سميت بمعاهدة (بورتسموث) وبين الحكومة في دفاعها عن هذه المعاهدة بحكم كونها بدأت بعقدها.

وليس في العراق - وذلك بما نأسف له - زعيم او هيئة لها صلاحية السيطرة على ميدان يتدافع فيه الشعب والحكومة على ضفتي هوة يوشك ان لا يكون لها جسر يصل بين طرفيها يصلح للعبور منه الى نقطة من نقاط الالتقاء. وهنا موضع الخطر، لان

التدهور هو المصير المحقق لكلا الفريقين المتناوشين على ضفتي الهوة .
ولكن في سمو الوصي - على أنه غير مسؤول - جهة زعامة
مدخرة لمثل هذا الظرف العصيب . وذلك وحده كان موضع
الرجاء في حل تلك الازمة وارجاع المياه الى مجاريها . فكان مؤتمر
البلاط ، ثم صدر على اثره بيان أعلن عن سموه للرأي العام ، ان
معاهدة لا يمكن ان تعقد اذا لم تحقق الآمال الوطنية . ولو لم
يصدر هذا البيان المحتشد بآمال الامة ورعشاتنا الخافقة باشواق
الشعب لاتسع الحرق على الواقع .

لن نكون - اذن - معاهدة لا تحقق آمالنا .. بهذا الوعد
الجازم الصريح تضامن حامي العرش مع الشعب فيما اراده هذا
الشعب الكريم من تحقيق امنيته في رفض معاهدة صنعت لمصلحة
الانكليز خاصة . وليست هذه المعاهدة فقط هي التي تخفق ، بل
ستخفق كل معاهدة لا يقرها الشعب وفق هذا الوعد الكريم .

وليس ذلك عجيباً . بل هو المنتظر من حامي العرش الممثلة فيه
رغبات الامة وآمال البلاد . فليس بنا من حاجة - والحال هذه -
الى الاستفاضة بحسنات هذا الوعد الكريم الذي جاز عما لا نرجوه
الى ما نرجوه من استقرار نحن أحوج ما نكون اليه في مواجهة
الخطوات المقبلة من صياغة نصوص المعاهدة التي نرضاها على ضوء
الواقع وفي نطاق كرامتنا الوطنية .

واني إذا ذكر لسيد البلاد هذا الموقف بالفخر والمجادة احب ان
اتوجه الى النواب بكلمة قلتها لاخواني منهم شفهياً وهي ان
عليهم من دفع هذه المعاهدة واجباً لا يسقطه عنهم التطور الذي

حدث على هذه المعاهدة . وهذا الواجب يفرض عليهم ان لا يترددوا في رفضها - ولاأظن أحداً يتردد في رفضها بعد هذا التطور . ولكن الركود الذي كاد يعزلهم عن التأثير في تطوير الموقف من المعاهدة المملغة يدعوني الى الفاتهم بما يجب عليهم نحو المعاهدة في نصها الجديد المنتظر . وانما ادعوهم الى ذلك ليكونوا مركزاً للثقل في الامور الصعاب . فليس من السهل ولا من الطبيعي ان يعتزلوا الجهاد في هذه الامور متكئين على شعور الشعب وعلى تكليف سمو الوصي بتوسط المبدات في كل ازمة .

لقد قلت لبعض أصدقائي كونوا نواباً بحق لتجلبوا الشبهة التي تقف في النفوس من نيابتكم . واني لاقولها لكم مرة اخرى في انتظار ان نعترف لكم بهذه النيابة . »

*

وكان هذا البيان في عرف التقاليد السياسية اقالة للوزارة . وقد انتظر الناس استقالتها بعده وتحذثوا كثيراً عن قرب وقوعها . وكان من الافضل ان تبادر هي الى الاستقالة بعد ان اصبحت ثقلا على النفوس والاسماع والابصار .

والواقع ان السكينة الموقنة التي عقببت البيان لم تكن غير فترة استراحة تتجمع للوثبة على الوزارة حين يصل فيخامة جـبر واءضاء وفده .

كما ان الحكومة او السياسة الانكليزية لم تنظر الى هذه الاحداث باهتمام بل رأت فيها ضربا من اللعب غير الجاد ، وجددير بها ان تهدأ حين ترى الجد .. !

لذلك لم تستقل الوزارة . بل طيرت برقية الى صالح جبر تدعوه الى الحضور بسرعة لتسوية المشكلة ، واصلاح الحال . وطير هو قبل مجيئه تصريحاً يتهم فيه فهم العراق بانه لم يتسع لفهم المعاهدة ، وانه آت على عجل لافهامه منها ما لم يفهم بتأديب الهدامين ، الذين استغلوا غيابه .

ومن الغريب ان يكون تصريحه هذا موافقاً بالنص لكلام بينفن الذي القاه يوم السبت ٢٤ / ١ / ٤٨ في مجلس العموم اذ استعرض سياسة بريطانيا في العالم وعرض للعراق فيما عرض له من البلدان فخصه بما نقله عنه فخامة (صديقي السيد صالح جبر) .
وبينما ضج الناس في مناقشة السيد صالح ناقشت انا بينفن بمقال علقته به على سياستنا الخارجية ، كما بحثت سياستنا الداخلية بمقال آخر ، يوم وصول الوفد المفاوض من لندن الى بغداد .
وكان هذين المقالين اثر بالغ في النفوس . أما السيد صالح فقد غضب وافتتح أعماله بعد عودته بتعطيل « الساعة » سنة كاملة على سنة « جزاء سنار » .

ولم يكن فيها من سبب للسخط غير انها مجدولة المنطق ، صادقة التصوير ، صافية الذهن .